

بناء شبكة تهريب سرية

الولايات المتحدة

عادت موجة تحرير العبيد مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، بعدما أخذت تتكشف صور الاتجار بالبشر في هذا البلد الذي خاض حرباً أهلية دامية؛ (1861 – 1865) بين ولايات الشمال والجنوب لاختلافها على قضايا كثيرة على رأسها قضية العبودية.

وقد اكتسب لويس إيتونوي شهرة واسعة لتحريره العبيد من بيوت العائلات الغنية في ولايات فرجينيا وميريلاند ونيوجيرسي. بدأ لويس حملته في عام 1999، ونجح في تحرير العديد من الفتيات الإفريقيات من الخدمة المنزلية والعبودية الجنسية. والمثير في الأمر أن الرجل لم يتلق تدريباً في قانون الهجرة، وغير مدعوم من أي منظمة من منظمات الخدمة الاجتماعية، ويموّل نشاطه بعمله مستندا إلى مبدأ مؤمن به: لن أظل متفرجاً وأنا أرى الضواري تفترس الضعاف.

بدأت رحلة لويس عندما كان يتناول العشاء ذات ليلة في بيت ابن عمه في مدينة ديشموند في ولاية فرجينيا. أخبره ابن عمه إنه يقدم مساعدة لصديق له يايواء فتاة مراهقة من الكاميرون هاربة من الأسر. أشار اصطلاح الأسر فضول لويس. للوهلة الأولى، اعتقد أن الفتاة ربما وقعت في مشكلات سياسية في الكاميرون التي ولد فيها هو أيضاً.

أصيب لويس بدهشة شديدة والفتاة تروي قصة عبوديتها في بيت إحدى العائلات الغنية في منطقة ريشموند. قالت الفتاة إن أسيادها وعدوا والديها الموجودين في الكاميرون بأنها سوف تتلقى تعليماً مقابل خدمتها في منزلهم.

كما وعدوا بإرسال راتبها إليهما بانتظام. وقد استخدم الزوجان الأمريكيان جواز سفر ابنتهما مع صورة مزيفة لإدخال البنت إلى الولايات المتحدة. عندما وصلت الفتاة إلى ولاية فرجينيا، أرغمت على العمل في نوبات تمتد من الصباح إلى المساء. وإضافة إلى ذلك، فإن الطفلة البالغة من العمر 14 عاماً لم تذهب إلى المدرسة مطلقاً، بل كانت مرغمة على البقاء داخل المنزل وعدم الخروج منه إلا بصحبة الزوج أو الزوجة. ومنعها كذلك من إجراء أي مكالمة مع أهلها في الكاميرون. هذا، إضافة إلى الاعتداء الجنسي عليها من قبل الزوج.

وفي أثناء سرد حكايتها أمام لويس، ألمحت البنت إلى أنها ليست الوحيدة من عائلتها التي جرى تهريبها إلى الولايات المتحدة، فسألها: ماذا تعنين بوجود أخريات سقطن في المصيدة نفسها؟ أجابت: لقد أحضر العديد من فتيات منطقتي إلى هنا.

وعندما سألتها إن كانت تعرف أسماءهن وأماكنهن، قالت:

- بكل تأكيد، أستطيع تزويدك بالأسماء والأماكن. لا أشعر بطعم الحرية وهنّ ما يزلن في الأسر. عليك مساعدتهن.

في تلك اللحظة، عرف لويس أنه أمام قضية نبيلة، ولم يكن أمامه أي خيار سوى الاستماع لنداء الواجب، وهو الذي وقف طوال حياته إلى جانب الضعفاء. حتى وهو في المدرسة المتوسطة، كان يمنع المتتمرين من استغلال الأطفال الضعفاء، ويتدخل لفض العراك حتى ولو لم يكن له علاقة به.

شعر وهو يستمع إلى إفادة هذه الفتاة الخائفة أن هناك مسؤولية كبيرة بانتظاره. وعندما اعترف له ابن عمه أنه لا يستطيع إيواء هذه البنت لأكثر من أيام قليلة، وافق لويس وزوجته على أخذها إلى بيتهما. وفي اليوم التالي، اتصل

لويس بمكتب التحقيقات الفيدرالي، وأبلغ عن حادث اختطاف دولي وعمل من أعمال السخرة، وقال إنه يأوي فتاة هاربة في بيته.

العبودية في أمريكا الحديثة

أجرت منظمة مناهضة الاتجار بالبشر المسماة حرروا العبيد (Free the Slaves) دراسة مشتركة مع مركز حقوق الإنسان في جامعة كاليفورنيا في الفترة من 1998 - 2003. وأصدرت المنظمة تقريرها النهائي بعنوان: العبيد المخفيون: أعمال السخرة في الولايات المتحدة، وثقت فيه طبيعة العبودية ومداهها داخل الحدود الأمريكية⁽¹⁾. وكشف التقرير عن الاتجاهات البارزة الآتية:

- يجري تهريب الأجانب إلى داخل الولايات المتحدة من خمس وثلاثين دولة على الأقل. وينتمي معظم المهربين إلى الصين والمكسيك وفيتنام.
- الولايات الأمريكية ذات النسبة العالية في العبودية هي: كاليفورنيا، وفلوريدا، وتكساس، ونيويورك.
- تدير عصابات إجرام مكسيكية، وآسيوية، وأوروبية شرقية شبكات واسعة للاتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة، مستهدفة مجموعات المهاجرين أساسًا.
- يستقدم المواطنون الأمريكيون والمقيمون الدائمون إلى البلاد الآلاف من عبيد الخدمة في المنازل.
- تشغل 75% من مصانع الألبسة في نيويورك العمال بأجر متدنٍ، وتحت ظروف سيئة، وغالبًا ما تشغل العمال دون أجر بتاتا.
- تنتشر أعمال السخرة في خمسة قطاعات من قطاعات الاقتصاد الأمريكي هي: البغاء وخدمات الجنس (46%)، الخدمة المنزلية

(27%)، الزراعة (10%)، المصانع (5%)، المطاعم وأعمال الفنادق (4%).

يصعب على كثير من الأمريكيين التصديق أن العبودية لا تزال موجودة في العالم بنسبة عالية، وربما في مجتمعاتهم أيضا. ولكن ذلك لا ينفي حقيقة وجود عشرات الآلاف من الأشخاص الذين يكدحون داخل الولايات المتحدة دون أجر وتحت تهديد العنف. ولأن أعمال السخرة غالباً ما تحدث في بيئات العمل غير المنظمة، أو التي تستخدم العمالة الرخيصة، فإن معظم الأمريكيين قد يشاهدون حالات عبودية دون إعارتها أي اهتمام.

ونظراً لسوء الفهم الشائع لدى كثير من الناس، نود التأكيد على أن حالات العبودية لا تتعلق كلها بالمهاجرين غير المسجلين؛ فصحيفة ديترويت فري بريس، مثلاً، أشارت في عام 2003 إلى أن شرطة ولاية ميشيغان كشفت عصابة للتجار بالبشر تمتد عبر عدة ولايات أمريكية وتشمل فتيات من وسط غرب الولايات المتحدة تبلغ أعمار بعضهن 13 عاماً فقط. وقد اكتشفت الشبكة الإجرامية عندما دخلت فتاة تبلغ من العمر 17 عاماً أحد المحال التجارية في مجمع تجاري في ديترويت، وطلبت مساعدة من رجل الأمن. تردد الحارس في البداية، ولكنه ما لبث أن رأى مختطفها يقتحمون المكان بحثاً عنها. لاحظ الحارس أن الفتاة كانت خائفة وقد تعرضت للضرب، فأبعد الملاحقين لها واتصل بشرطة الولاية. أبلغت الفتاة الشرطة أنها اختطفت عندما كانت تنتظر عند موقف للحافلات في وسط مدينة كليفلاند، ونقلها مختطفوها بسيارة إلى ديترويت حيث أرغمت على ممارسة البغاء.

استطاعت الفتاة تحديد البيت الذي كانت محجوزة فيه في مدينة ديترويت. وهناك، اعتقلت الشرطة رئيس الشبكة. وبعد مزيد من التحقيقات، اكتشفت

الشرطة أن العصابات كانت تختطف المراهقات طوال ثمانية أعوام، وتوزعهن على المدن عبر ولايات وسط غرب الولايات المتحدة.

أعلنت والدة الفتاة التي أدى هروبها إلى كشف هذه الشبكة: الأمر كله غير معقول ولا يصدق. إنها العبودية. إنهم يغرون هؤلاء الفتيات ويجبرونهن على القيام بكل ما يريدونه. إن هذا التصرف الذي يمارسونه مع أطفالنا مشين ومقزز⁽²⁾.

النائب العام والمصارع

انضمت سوزان كويج إلى مكتب النائب العام في المقاطعة الغربية لولاية جورجيا بعد تخرجها في جامعة حقوق سنغافورة بفترة وجيزة.

كانت متحمسة جداً للدفاع عن ضحايا الخدمة القسرية، فتولت التحقيق مع 14 سمسار فاحشة. كانت تلك قضيتها الأولى، ولكن القضايا توالى واحدة إثر أخرى، مما جعلها خبيرة في قضايا الاتجار بالبشر. واكتسبت من جراء هذه التحقيقات والقضايا خبرة كافية جعلتها مستعدة لجولة قانونية مع مصارع محترف سابق يدعى هاريسون هاردبوي نوريس.

كان هاريسون من النجوم المتألقة في بطولة العالم للمصارعة في تسعينيات القرن الماضي، وكان يتمتع بروح دعابة وجسم رائع يؤهله للنجاح في أي عمل يُقَدَّم عليه. كما أن الخدمة العسكرية القاسية في الجيش الأمريكي جعلته منضبطاً ذاتياً وزاهداً في الدنيا.

كان هاريسون متزوجاً، وله ابنة مراهقة، وكان يعيش مع عائلته في مدينة شيلسترفيل التي تبعد نحو 30 ميلاً عن مدينة أتلانتا في ولاية جورجيا. وكان يمتلك بيتين، أحدهما يشمل على قاعة للتدريب مجهزة تماماً. في إبريل 2004، قرر هاريسون البدء بتدريب الجيل الثاني من نجوم المصارعة. لكن المصارعين الذين اختار تدريبهم لم يكونوا مصارعين عاديين، بل مصارعات.

في كل مكان يذهب إليه، كان هاريسون يبحث عن نساء معينات، وبمنحهن فرصة تجربة حياة جديدة وتحقيق النجومية. أطلق على النساء ألقاباً خاصة بالمصارعة، وكان يناديهن بها. بعد ذلك، ألحق كل واحدة منهن بفريق، وطبّق عليهن نظاماً عسكرياً قاسياً في التدريب والأكل. كما منعهن عن التدخين وتناول الكحول والمخدرات أيّاً كان نوعها. ومع مرور الوقت، أصبحت النساء أكثر رشاقة وطلاقة وصحة.

مشروع بولاريس؛ الاهتداء بنجم الشمال

بعد اصطدام طائرتين بمركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك يوم 11 سبتمبر من عام 2001، لم تكن كاترين شون طالبة الجامعة الوحيدة التي نشأت وهي تحمل همّاً حول مستقبل العالم، وكانت في الأيام التي أعقبت الهجوم توجه النقاشات في لقاءاتها مع أصدقائها في جامعة براون نحو القضايا الاجتماعية العالمية.

في أحد هذه النقاشات، سأل ديريك إيرمان: إذن، ما رأيك، هل الدين هو الأداة التي يستخدمها الناس لتبرير أعمال الإرهاب والاضطهاد. انظري إلى تاريخ الولايات المتحدة، لقد استخدم المسيحيون الإنجيل لتكريس ممارسة العبودية. هذا صحيح، أجابته كاترين، ولكن الإنجيل نفسه هو ما ألهم المسيحيين الآخرين ليصبحوا الرّواد الأساسيين في حركة مناهضة الرق.

كانت هذه هي البداية التي انطلق منها النقاش اللاحق بين مجموعة من الطلاب الذين حضروا اللقاء، حول القوى الاجتماعية التي نجحت واقعياً في وقف تجارة العبيد في القرن التاسع عشر. وبسرعة، حوّل ديريك الموضوع عندما قال: حسناً، ما المطلوب، برأيك، لإنهاء العبودية اليوم؟

نظرت إليه كاترين بارتباك، وسألته: ما الذي تتحدث عنه؟

قال ديريك: ما أتحدث عنه هو أن النساء والأطفال يُخطفون، أو يُباعون، أو يُزج بهم رغماً عنهم في سوق الدعارة. إضافة إلى وجود ملايين من الناس يعانون من أعمال السخرة في الهند ونيبال وباكستان.

أصيب زملاء ديريك بصدمة شديدة، في حين اعتقدت كاترين أن ديريك يبالي في الأمر، وإلا لكانت سمعت بهذه الانتهاكات وهي في جامعة براون. ولكن، عندما جلست لتدرس في تلك الليلة، ظلت كلمات ديريك تدور في رأسها. ولذلك، نَحَّت كتبها جانباً، وأخذت تبحث في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) عن معلومات حول الاتجار بالبشر. حينها، عثرت على تقرير مفصّل من إحدى منظمات حقوق الإنسان عن ملايين من ضحايا العبودية المعاصرة.

تستذكر كاترين ردة فعلها آنذاك قائلة: كنت في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية، ولم أكن أعلم أن هذه المشكلة الكبيرة موجودة. وفي اليوم التالي، سألت أكثر الطلاب الناشطين سياسياً وأساتذة الجامعة إن كانوا يملكون معلومات عن تجارة العبيد العالمية، فاعترفوا بجهلهم لهذه الظاهرة.

قررت كاترين أن تستقصي الأمر، فبدأت تبحث عن مواضيع تتناول العبودية. في إحدى الصحف، عثرت على مقالة تتحدث عن غارة للشرطة على مركز للتدليك، لا يبعد سوى أميال قليلة عن جامعتها. وجاءت الغارة بعد تلقي الشرطة معلومات تشير إلى أن ذلك المركز يدير بيتاً للدعارة. وعلى إثر هذه الغارة، اعتقلت ست نساء من كوريا الجنوبية. وتبين أن تجار الرقيق أحضروا تلك النسوة بجوازات سفر مزورة، ثم احتفظوا بتلك الجوازات عند دخولهن إلى الولايات المتحدة، وأجبروهن بعد ذلك على بيع أجسادهن في سوق الجنس التجاري. وبالرغم من إفادات النساء وآثار التعذيب الظاهرة على أجسادهن، إلا أن الشرطة اعتقلتهن بتهمة ممارسة البغاء.

اعترت كاترين صدمة؛ لأن هذا يجري قريباً منها دون أن تدرك ذلك. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل تحوّل إلى قضية شخصية لأنها نفسها من مواليد كوريا الجنوبية، كما أن عمرها يقارب أعمار أولئك النساء. أخذ الغضب يعتدل في صدرها كلما قرأت أكثر عن تجارة الرقيق المعاصرة. وعندما أبلغت ديريك برغبتها في الانضمام إلى حركة مناهضة الرقيق، قال لها: سوف أنضم معك أيضاً، إذ لا يمكننا أن نظل متفرجين تجاه ما يحدث.

ولكن، أصيبوا بخيبة أمل بسبب عدم العثور على منظمة تقبل بالتحاق المتطوعين بها؛ لأن مجموعات مناهضة الرق الموجودة كانت تبحث عن محترفين ذوي تأهيل عالٍ. وعليه، كان الخيار الوحيد أمامها هو تنظيم حملة لجمع التبرعات، أو عرض فلم في الحرم الجامعي. كان الاثنان يرغبان في الانخراط بالحركة، لكنهما أدركا أن عليهما أولاً فهم آليات عمل العبودية المعاصرة. ولذلك، أقتعا اثنين من أساتذتهما بتغيير المساق الدراسي في الفصل القادم، وتكليف الطلاب بإجراء دراسات غير مسبقة عن الاتجار بالبشر.

درجت جامعة براون على الإعلان عن مسابقة سنوية لأصحاب المشاريع الريادية لإعداد خطة عمل لتأسيس شركة حديثة. ومع أن المسابقة كانت موجهة لمتقدمين يبنون مشاريع تجارية ربحية، إلا أن ديريك وكاترين رأيا أن الشروط تنطبق عليهما، حتى وإن كان الهدف تحقيق العدالة الاجتماعية. ولذلك، أعدا خطة عمل لإنشاء وكالة تستثمر تقنيات الاتصالات والمهارة الإدارية في مناهضة تجارة الرق. وبالرغم من فكرتهما غير العادية، إلا أنهما فازا بالمركز الثاني، وحصلا على جائزة نقدية قدرها 12.500 دولار تكفي لإنشاء وكالة لمناهضة الرق، أطلقا عليها اسم بولاريس بروجكت، إشارة إلى النجم القطبي الذي اهتدى به عبيد الولايات المتحدة في هروبهم لنيل الحرية في القرن التاسع عشر عبر خطوط التهريب السرية.

لويس ايتونوي؛ إذا هبّت رياحك فاغتنمها

تأخر مكتب التحقيقات الفيدرالي في الاستجابة لبلاغ هاريسون عن وجود شبكة تجارة بالبشر في مدينة ريشموند، ولذلك لجأ إلى دائرة الهجرة والتجنيس، والشرطة المحلية. استمعت الجهتان له باهتمام، ولكنهما لم يعطيا الأمر أولوية، كما لم يتابعا الدليل الذي قدّمه لهما عن وجود مزيد من الفتيات المهرّبات من الكاميرون.

يقول هاريسون عن ذلك: لقد أدركت حينها أنني إذا لم أتحرك، فلن يتحرك أي إنسان آخر. لذا، اتصل بهاتف منزل عائلة من عائلات نيوجيرسي زودته بها الفتاة الهاربة. كان يأمل أن تكون الفتاة الخادمة وحدها في البيت. ولذلك، فقد اتصل ظهرًا. وقد نجحت خطته، حيث ردّت الفتاة الكاميرونية وقالت إن عمرها سبعة عشر عامًا، وأنها قضت ثلاث سنوات في العبودية، وتعرضت للإساءات نفسها التي تعرضت لها ضيفة هاريسون. اعترفت له الفتاة بأنها استسلمت لحياة العبودية.

عندما سألتها هاريسون عن موقع قريتها في الكاميرون، ذكرت له اسم قرية لا تبعد سوى ميلين عن القرية التي ولد فيها. لم يندهش كثيرًا عندما ذكرت له اسم القرية، لكن الصدمة جاءت عندما سألتها عن عائلتها وذكرت اسم أمها. لم يصدق أذنيه؛ فأم الفتاة كانت ابنة عمه التي عرفها طوال حياته.

قبل أن يضع سماعة الهاتف، كان صوتها يلاحقه من الطرف الآخر: أرجوك أن تخلصني من هذا السجن.

يؤمن هاريسون بأن على الإنسان أن يغتنم الفرصة المثالية عندما تتاح له، لأنها قد لا تتكرر مرة أخرى، فقال لها: لقد تركك أصحاب البيت وحدك، لذلك، علينا اغتنام الفرصة لإخراجك منه.

وضعا خطة هروب سريعة، لكن الفتاة قالت إنها تعتني بثلاثة أطفال صغار، وأن من الخطأ تركهم وحيدين. وما أن أنهت جملتها حتى رأت صاحبة المنزل تعود في الساعة الرابعة بعد الظهر على غير عاداتها، وهي تقود سيارتها عبر ممر طويل. عندها، تسللت الفتاة من الباب الخلفي حسب الخطة، وهربت إلى شارع فرعي قريب. كان هاريسون قد اتصل بأخ زوجته في نيو جيرسي، وطلب إليه انتظار الفتاة بسيارته في ذلك الشارع، وأخذها إلى منزله، ومن ثم انتظار حضور هاريسون الذي سيأتي إلى نيو جيرسي في تلك الليلة بعد انتهاء دوامه في فرجينيا؛ نجحت الخطة تماماً، وأنقذت الفتاة.

في طريق العودة من نيو جيرسي إلى فرجينيا، سررت له الفتاة تفاصيل أسرها، وكيف أنها لم تتصل بعائلتها طوال سنوات ثلاث.

وبحلول عام 2002، كان هاريسون قد نجح في إنقاذ فتاتين أخريين من عبودية الخدمة المنزلية. عاشت الفتيات في بيته طوال تلك المدة. ولكنه وجد صعوبة في إقناع الجهات القضائية لتوفير الحماية لهن، رغم محاولاته المتواصلة. وعادة ما يكون التحقيق في جريمة الاتجار بالبشر بطيئاً جداً في الولايات المتحدة، حتى في مثل هذه الحالات التي وثقت فيها شهادات الضحايا. وكما يحدث عادة، زعم تجار الرقيق أن أهل هؤلاء البنات قد وقعوا على عقد عمل يسمح بتشغيل بناتهم، وأنهم يملكون الوثائق التي تثبت ذلك.

كادت القضية أن تنتهي عند هذا الحد؛ لأن السلطات القضائية المحلية والاتحادية لم تكن مستعدة لإرسال محقق إلى إفريقية لكشف الحقيقة.

أمام هذا الوضع، قرر هاريسون شراء تذكرة طائرة وكاميرا فيديو، وسافر إلى الكاميرون على حسابه الخاص. عندما وصل إلى هناك، ذهب إلى بيوت عائلات الفتيات الموجودات في بيته، وصور إفاداتها، وكيف أن تجار الرقيق وعدوا بتعليم البنات، ودفع أجر مجزٍ لهن.

أفادت هذه العائلات إنها لم تعرف شيئاً عن بناتها منذ ذهابهن إلى الولايات المتحدة، كما أنها لم تتلق أي نقود من الذين يعملن لديهم.

اغتنم هاريسون الفرصة وزار قريته. وعندما وصل إلى هناك، وجد ابنة عمه في حالة حداد، وقد اتشحت بالسواد. استقبلته باكية وقالت له وهي تذرف الدمع السخي: كنت أتمنى يا ابن العم أن احتفل بقدمك من أمريكا، ولكني تلقيت أخباراً عن اختفاء ابنتي في وطنك الجديد، وأنها ربما تكون قد ماتت.

عندما هدأت الأم قليلاً، عرض هاريسون عليها وعلى أهل القرية رسالة مصورة من البنت إلى عائلتها وأصدقائها، فتعالت الزغاريد في القرية بهجة وسرورا.

النائب العام والمصارع في المحكمة

نظراً لأن جرائم الاتجار بالبشر يمكن إخفاؤها، فإن هذه الجرائم قد تستمر سنوات دون أن يحس بها حتى الجيران الذي يعيشون قريباً منها. وما يحدث في واقع الأمر أن مثل هذه الجرائم قد تُكتشف بمحض الصدفة، وهذا ما حدث بالضبط مع المصارع هاردبوي نوريس.

غالباً ما كان نوريس يصطحب المتدربات لديه لشراء ملابس المصارعة التي تبرز مفاصلهن وتجذب الانتباه لهن. وأبلغ النساء أن عليهن عدم الانزعاج من العيون التي تلاحقهن عند سيرهن في الشوارع.

في إحدى هذه الزيارات إلى أحد المجمعات التجارية في أغسطس 2004، اتخذت الأحداث مساراً مغايراً عندما انفصلت إحدى النساء عن مجموعتها، وذهبت إلى سيارة شرطة. وهناك، أبلغت الضابط الموجود فيها أنها مع امرأتين أخريين محتجزات ضد إرادتهن، وأن نوريس يجبرهن على العمل مومسات.

عندما فتحت الشرطة تحقيقاً في هذا الادعاء، أنكر نورييس والنساء اللواتي عينهن قادة فرق هذه التهم. أخذت الشرطة النساء الثلاث، وتظاهرت باعتقالهن لإبعادهن عن نورييس. وقد استغرق التحقيق في نشاطات نورييس سنة كاملة، وشارك فيه عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، وكذلك ضباط من دائرة الشرطة في سميرنا، إحدى ضواحي مدينة أتلانتا.

في بداية الأمر، اعتقدت الشرطة أنها وضعت الضحايا جميعهن في الحجز الاحترازي حفاظاً على حياتهن، بانتظار جمع مزيد من الأدلة. ولكن، لم يكد يمر عام على الحادث الأول حتى استطاع نورييس استدراج ضحيتين جديدتين بالانضمام إلى فريق المصارعة، مع وعود كاذبة بالشهرة والغنى. إلا أن القضية شهدت تطوراً آخر مفاجئاً؛ عندما استطاعت إحدى النساء قطع غطاء الحماية والزحف عبر نافذة الحمام، ومن ثم الهرب من الأسر. أسرعت المرأة الهاربة إلى الشرطة وأبلغتهم أن نورييس وخمسة من المتواطئين معه يحتجزون امرأة أخرى في المكان الذي هربت منه. وفي نهاية المطاف، تمكنت الشرطة من تحديد هوية تسع نساء، رفض بعضهن التقدم بشكوى إلا بعد الإعلان عن القضية.

وعن ذلك تقول سوزان كوبيج: غالباً ما تكون مثل هذه القضايا مليئة بالمنعطفات غير المتوقعة. كنا على وشك توجيه اتهام لنورييس والمتواطئين معه، إلا أننا لم نكن نعرف مدى انتشار نشاطه. ولكن بعد اعتقاله مباشرة، بدا لو أن بوابة نهر قد فتحت على مصراعها؛ فتدفقت الأدلة من كل حذب وصوب.

ما حدث بعد ذلك هو اكتشاف عالم متشابك من السيطرة والتحكم. وقد وجهت الحكومة إلى نورييس ثمانية وعشرين اتهاماً بممارسة نشاط إجرامي، منها التآمر، والاتجار بالبشر، وأعمال السخرة، والتلاعب بالشهود.

لقد استطاع نوريس من خلال التمويه بتدريب الرياضيين تشكيل شبكة من المومسات اللواتي أحبينه وكرهنه في آن معا. وقد وجد أنه احتفظ بسجلات قوانينه الخاصة بالنساء، والتي أشار إليها بالوصايا العشر. كما كلف قادة الفرق - اللواتي اعترفن بأنهن يعشقن نوريس، وأقمن معه علاقة جنسية- بالسيطرة على ضحايا آخر. وكان يطبق نظاماً للعقوبات والمكافآت ضمن سياسة الضبط والربط، ومن ذلك تغريم من تعارضه خمسين دولاراً، وتحديد عدد المرات التي على المومس أن تبيع فيها جسدها للزبائن. أما المرأة التي تتخطى الحصة اليومية المحددة لها فكانت تبيع ليلة للمبيت في «مقر الجنرال» وهو عبارة عن غرفة نوم يتقاسمها نوريس مع المرأة التي تفوز بهذه الليلة.

جاء اهتمام هاردبوي بالتفاصيل والانضباط لغير صالحه؛ إذ إنه سهّل من مهمة الحكومة في توجيه الاتهام إليه، ومن ذلك كشف بالديون المستحقة على النساء، إذ كان يتقاضى منهن بدل إيجار كل شهر، وأثمان الطعام والملابس والتدريب، وأي مصاريف أخرى تخطر بباله.

كان ذلك في بداية مشروع التدريب، مما جعل النساء يتحملن ديوناً كبيرة. ولكن كيف يمكن لامرأة مقيدة الحركات ردّ هذه الديون. كان الجواب عند نوريس؛ أن تمارس الدعارة القسرية. في عطلة نهاية كل أسبوع، كان يحشر النساء في عربة، وينقلهن إلى نادٍ ليلي لصديق له يرتاده رجال من أمريكا اللاتينية. وفيه، يُرغمن على الرقص وخدمة الزبائن، في حين كان الجنرال يأخذ منهن النقود التي جمعنها، ويضعها في خزانة خاصة به.

حاول نوريس أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة، فأنكر التهم الموجهة إليه، وأن النساء اللواتي اعتنى بهن تمتعن بصحة جيدة، ولياقة وحيوية، ولم يتعاطين المخدرات.

تعترف كوبيج أن شخصية نوريس مثلت تحدياً للنائب العام. وعن ذلك تقول: ومع أننا كنا واثقين من التحقيق والأدلة التي جمعناها ضده، إلا أن القضاة يميلون إلى إعطاء الناس الذين يدافعون عن أنفسهم حرية في المرافعة أكثر مما يعطونها لمحام محترف. قلنا للضحايا إن نوريس سوف يستجوبهن، وهي فكرة كانت مخيفة لكثيرات منهن.

وبالرغم من جاذبيته، إلا أن نوريس فشل في كسب القضية. وعليه، أصدرت المحكمة الفدرالية أفسى حكم يصدر على تاجر رقيق قبل عام 2005، وهو السجن مدى الحياة. وقد أشار القاضي إلى ذكاء نوريس وحكته التجارية، وهذا في الحقيقة ما جعل القاضي يصدر أفسى حكم عليه. ومما قاله القاضي: كان ممكن له أن ينجح في أي مشروع شرعي يقوم به، ومع ذلك فقد اختار أن يكون تاجر رقيق ومستغلاً للبشر.

لقد كانت ضحايا نوريس جميعهن مواطنات أمريكيات راشدات - عيدات أمريكيات - وأنقذهن نظام قضائي أمريكي فريد.

الجوقة الغنائية الزامبية؛ عبودية في الكنيسة

اعتقدت ساندي شيبرد أنها تقوم بعمل صالح يقربها إلى الله، فقد قامت بدور بارز في إحضار جوقة غنائية زامبية إلى كنسيتها المعمدانية. كان أعضاء الجوقة ينتمون إلى عائلات فقيرة في زامبيا، ذلك البلد الإفريقي الذي يفتقر إلى أي منفذ بحري.

بدأت الحكاية عندما كوّن قسّ يدعى كيث غرايمز خدمة كنيسة سمّاها «تعليم المعلمين كيفية التعليم» لخدمة رعايا الكنيسة على جانبي المحيط الأطلسي. وكانت الفكرة هي جعل مرتادي الكنيسة يتأثرون عند سماع أطفال

أفارقة يترنمون في مديح المسيح، مما يجعلهم يتبرعون لتمويل مشاريع تربية في زامبيا.

عندما كان القسّ يختار الأطفال لتكوين الجوقة، كان يبلغ أولياء أمور الأولاد أن التبرعات الأمريكية سوف توظّف لتمويل مدارس محلية في زامبيا. يضاف إلى ذلك أن الأولاد سوف يتلقّون راتبًا كنسيًا لتحويله إلى ذويهم. وكان يقول للأهالي في أثناء جولاته إن العاملين معه سوف يعلمون هؤلاء الأولاد الذين سيكونون أول من يلتحق بالمدارس المبنية حديثاً.

أحضر القسّ غرايمز أول جوقة أولاد إلى الولايات المتحدة في عام 2003، وأعدّ لهم جولة تستغرق ثلاثة أشهر. وقد بلغت الإيرادات من التبرعات وبيع الأقراص المضغوطة الخاصة بعروض الأولاد نحو ربع مليون دولار. كان هذا المبلغ أكثر مما حلم به هذا القسّ، مما جعله يمدد الجولة لمدة نصف عام إضافي دون موافقة الأولاد أو أولياء أمورهم. وكانت الحصيلة المالية مذهلة. بعد عودة فريق الجولة الأولى إلى زامبيا، قرر القسّ غرايمز تشكيل جوقة أخرى. واستطاع خلال الفترة من 1993 – 2000 تشكيل خمس فرق من زامبيا، وفريق سادس من ليبيريا كان يضم أطفالاً أكفياً. استقبلت العائلات من رعايا الكنيسة هؤلاء الأطفال بحفاوة كبيرة. وفي الفترة الفاصلة بين الجولات، كان الأطفال يقيمون في مقر برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم» الواقع في منطقة ريفية في ولاية تكساس.

في أحد الأيام، حضرت ساندي وهي أم لثلاث بنات من مدينة كوليفيل لتعرض استضافة بعض الأولاد، بعد تقديم الفرقة أول عرض لها في كنيسة كوليفيل المعمدانية. تشوقت ساندي إلى زيارة زامبيا بعد سماعها ترانيم الفرقة الموسيقية، ووصف القسّ غرايمز لحياة البؤس والفقر في زامبيا. وقد تناولت العشاء مع هؤلاء الأولاد في منزلها. ولذلك، لم تترد في الانضمام إلى وفد من

الكنيسة لزيارة زامبيا، والإطلاع شخصياً على أحوال المنطقة التي جاء الأبناء منها، والموقع المخصص لإنشاء المدرسة الجديدة.

كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها القسّ غرايمز يمارس العمل الميداني. كان قسّاً أبيض، يرتدي قميصاً نظيفاً، وربطة عنق مما زاد من مصداقيته، كما أنه أسر قلوب الفلاحين الزامبيين بأسلوبه الرقيق والجذاب. ولاحظت ساندي شعور الفخار عند الآباء الذين يختار القسّ أبناءهم للانضمام إلى الجوقة الموسيقية. وقع أولياء الأمور وثائق مكتوبة باللغة الإنجليزية التي لا يفهمونها، ولكنهم كانوا على ثقة بأن القسّ سوف يعتني بأبنائهم.

في أثناء زيارة الجوقة الأولى إلى كولينيل، ظل الأبناء الذين استضافتهم ساندي صامتين طوال الوقت، فاعتقدت أن هذا تصرف طبيعي من أطفال جاؤوا إلى بلد، هم فيه أغراب.

لم تكن ساندي تظن أن في الأمر ما يريب. ولكنها لم تكن تعلم أن العاملين في المشروع قد هدّوا الأبناء بالتزام الصمت التام عن حياتهم في الجوقة، وإذا ما قدمت إليهم العائلة هدايا، فعليهم تسليمها إلى قادة الفرقة.

بعد عودة ساندي من زامبيا، قدّم الأبناء عدداً من العروض في كنيستها، وأخذوا ينفثون تدريجياً ويوحون ببعض المعلومات التي أفلقت مضيفيهم. قال الأبناء إن العاملين في المشروع كانوا يراقبون رسائلهم من زامبيا وإليها، كما منعوهم من إجراء مكالمات هاتفية مع ذويهم. كانت الجوقة تقدم أربعة عروض يومياً في المجمعات التجارية، والكنائس، والمدارس. وكانوا في بعض الأيام يقدمون ثمانية عروض. كما اعترفوا بأن القسّ غرايمز كان يهدد أي طفل مريض أو مريض بإعادته إلى زامبيا، مما يجعله مصدر عار بالنسبة لوالديه. كما كشفوا أنهم يعيشون في ظروف سيئة لأن المسؤولين عن المشروع لم يدفعوا لهم الهبات النقدية التي وعدوهم بها البتة.

عندما اتصلت ساندي بالقس معربة عن قلقها، رد عليها بغضب شديد. وهذا جانب لم تعرفه عنه في أثناء جولتها الميدانية معه في زامبيا. ولم يؤد نفيه وإنكاره الشديديان إلا إلى زيادة شكوكها، ولذلك اتصلت بسلطات تطبيق القانون، وطلبت إجراء تحقيق في الأمر. وعن ذلك تقول: إنني أتعاطف مع العائلات الزامبية. لم يكن يخطر ببالي أن رجل دين، يتستر وراء مشروع كنسي، يمكن أن يستعبد أطفالاً صغاراً من أجل جمع التبرعات. وهي تعترف بأنها في ذلك الوقت لم تكن تعرف الكثير عن الاتجار بالبشر. ولذلك، فقد تحدثت إلى العملاء الفيدراليين عن هذه القضية الواضحة المتعلقة باستغلال الأطفال.

أجرى ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي تحقيقاً في قضية مشروع «تعليم المعلمين كيفية التعليم»، ولكنهم ردوا اتهامات أعمال السخرة والاسترقاق لأنهم لم يعثروا على أي آثار للأصفاة أو كدمات على أجسام الأطفال. وقد شرح القس مهمة الجوقة أمام العملاء الذين افتنعوا بدوافعه. كما أن القس أظهر لهم عقوداً موقعة من العائلات الزامبية تعطيه حق الوصاية الشرعية على الأولاد داخل الولايات المتحدة.

وبالرغم من هذا الفضل، إلا أن ساندي استمرت في مساعيها، فاتصلت بسلطات تنفيذ القانون في تكساس لدى دائرة الهجرة والتجنيس ومكتب النائب العام. ولكن هذه الجهود جميعها لم تؤد إلى نتائج ملموسة أيضاً.

في عام 1998، عادت جوقة الأولاد الذين توثقت علاقتهم بساندي إلى إفريقيا. في هذه الأثناء سمعت ساندي أن القس غرايمز قد شكّل جوقة جديدة تضم 67 طفلاً زامبياً، لكنها لم تعد تحتل الحديث عن مشروع «تعليم المعلمين كيفية التعليم»، فراجع حماسها لرفع شكوى قضائية أخرى.

من جانبهم، سعى المسؤولون عن المشروع إلى تجنب كنيسة كوليفيل المعمدانية، كما أن القس غرايمز حذر الأطفال من وجود كنيسة شيطانية هناك،

وأمرهم ألا يقبلوا أي دعوة من عائلات المدينة. وأخافهم بقوله: إذا ذهبتم إلى تلك الكنيسة، فإنهم سوف يغربون بكم، وسوف تتعرضون للإساءة؛ إنه صوت الذئب الذي ينصح الشياه أن تحذر الدجاج.

افتتاح العبودية

في أغسطس 1995، اقتحمت قوة فيدرالية مجمعا سكنياً يضم ثمانى شقق، محاطاً بأسلاك شائكة في حي إلمونتو في لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا. وهناك، عثرت على 72 امرأة يعملن في صناعة الملابس، محتجزات أسرى في المجمع منذ سبع سنوات. وتبين من التحقيقات أن تجار الرقيق جمعوا هؤلاء النساء من المناطق الفقيرة والريفية في تايلاند، ووعدهن بوظائف في صناعة الملابس تدر دخلاً مجزياً. وعند وصولهن إلى لوس أنجلوس، أخذ تجار الرقيق جوازات سفرهن وقالوا إن عليهن دفع تكاليف إحصارهن من تايلاند إلى الولايات المتحدة.

كان مصنع الخياطة موجود في مرآب المجمع السكني، وكانت المكنات مصفوفة على طاولات بتراص بصورة لا تسمح بحرية الحركة، كما أن المكان يفتقر إلى التهوية الصحية، في حين كانت النوافذ مغطاة بملصقات جدارية تحجب الرؤية. أما غرف النوم فملئية بالصرابير، ولا يوجد فيها أي أثاث، وإنما مجرد فرش ملقاة على الأرض. كانت الملصقات تمنع دخول أشعة الشمس. وكانت كل عشر نساء ينمن في غرفة واحدة لا تتسع أساساً لشخصين. إضافة إلى هذا المصنع، كان تجار الرقيق يديرون مصنعي خياطة آخرين في المنطقة الصناعية المكتظة في لوس أنجلوس. كانت بعض النساء التايلانديات يعملن في مصنع المرآب، في حين كانت النساء الأخريات يُنقلن يومياً إلى هذين المصنعين، وكن يعملن في نوبات عمل تمتد 16 ساعة تحت رقابة مشددة من حراس مسلحين.

كان تجار الرقيق يدفعون إلى أولئك العاملات 27 سنّاً في الساعة، ثم يستردوا تلك النقود مباشرة لتسديد الدين الذي عليهن. ونظراً لأنهم لم يكونوا يسمحون للعاملات بمغادرة المجمع دون حراسة، فقد أنشأ تجار الرقيق لهن مخزناً للمنظفات والمواد الغذائية الضرورية. فيه، قطعة الصابون تباع بعشرين دولاراً وكيس الأرز بعشرة.

بعد اقتحام هذا المجمع، قال وزير العمل الأمريكي آنذاك روبرت رايب: إن هذه القضية هي أسوأ قضية عبودية في التاريخ الأمريكي الحديث⁽³⁾. وبالرغم مما قاله الوزير، إلا أن القوة التي اقتحمت المكان عاملت النساء كوافدات بطريقة غير شرعية. ولم يكف معاناتهن في الأسر مدة سبع سنوات، بل تمّ الزجّ بهن وراء القضبان، وإرغامهن على ارتداء ملابس السجن. وكانت هذه المعاملة رسالة تخويف للعبيد في الولايات المتحدة كافة. كما أنها جاءت دعماً لتحذير تجار الرقيق ضحاياهم: بلغوا السلطات عنا، وسوف تسجنون أنتم لا نحن.

انبرت مجموعات لحقوق الإنسان ومن الجاليات الآسيوية في مدينة لوس انجلوس بالدفاع عن النساء المحتجزات، وجمعت لهن تبرعات لدفع كفالاتهن المالية. ولكن تبين لهذه المجموعات بعد ذلك عدم وجود منظمة تستطيع دفع تكاليف الرعاية الصحية، والقضايا القانونية، والاحتياجات اليومية لهؤلاء النسوة. وفي الأشهر اللاحقة، اتفق مركز تطوير الجالية التايلاندية، ومركز طوكيو للخدمات، وأساتذة جامعات، ومجموعات المساعدة القانونية على تشكيل تحالف لإلغاء العبودية والاتجار بالبشر، وأعلن عنه رسمياً في عام 1998.

قانون

أحدث اكتشاف حالة العبودية هذه صدمة داخل المجتمع الأمريكي، ليس لبشاعتها فحسب، بل لأن أكثر من سبعين امرأة أُحتجزن مدة سبع سنوات في

حي سكني، دون أن يثرن انتباه أحد. وأثارت المحاكمات التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة قلقاً في الدوائر السياسية والقانونية، ودقّت ناقوس الخطر للتنبيه بأن الولايات المتحدة تفتقر إلى التشريعات الرادعة لمحاربة الاتجار بالبشر، وتوفير الحماية للضحايا، وبخاصة الأجانب منهم، الذين يُتهمون بمخالفة قانون الهجرة، ومن ثمَّ يُسجنون ويُرحّلون إلى مناطق شديدة الخطورة.

مارس نشطاء تحالف إلغاء العبودية والاتجار بالبشر، وعدة منظمات غير حكومية، ضغطاً على المُشرِّعين لوضع قانون يحمي حقوق الضحايا، ويركز اهتمام سلطات تنفيذ القانون على ملاحقة المجرمين الحقيقيين. كما حثوا الحكومة الأمريكية على تقديم خدمات لتمكين هؤلاء الضحايا من استرداد عافيتهم البدنية والنفسية.

واستجابة لهذه الضغوط، أقر الكونجرس الأمريكي في نهاية عام 2000 قانون حماية ضحايا الاتجار بالبشر، بهدف واضح هو: ضمان محاكمة تجار الرقيق، وإصدار عقوبات رادعة ضدهم، وحماية ضحاياهم. والأهم من هذا، اعتراف القانون بأن الاتجار بالبشر مشكلة أمريكية داخلية ومشكلة عالمية في وقت واحد.

وقد وفر القانون الجديد لسلطات تنفيذ القانون أدوات أفضل لمحاكمة المجرمين المتورطين في الخدمة القسرية، والاتجار بالنساء للجنس، وأعمال السخرة. وبناء على هذا القانون، فإن الاتجار بالبشر لأي من الأغراض السابقة يعدّ جريمة، عقوبة مرتكبها السجن عشرون عاماً، وقد تصل العقوبة إلى السجن المؤبد في القضايا التي تشمل إساءة جنسية شديدة، أو اختطافاً، أو قتلاً. واستحدث القانون فئة جديدة من تأشيرات الدخول - فئة ت - خاصة بضحايا الاتجار بالبشر الذين جلبوا إلى الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية، أو إبقائهم في الولايات المتحدة إذا ما تأكد أن هؤلاء الضحايا قد يتعرضون إلى متاعب قاسية، تتضمن أذى شديداً في حال إعادتهم إلى بلدانهم الأصلية. وهناك شرط

آخر للحصول على هذه التأشيرة، وهو تعاون الضحايا مع سلطات تنفيذ القانون ضد المسؤولين عن استرقاقهم. ويستطيع الأشخاص الحاصلون على هذه الفئة من التأشيرات التقدّم بطلبات للحصول على إقامة دائمة بعد مرور ثلاث سنوات من حصولهم عليها. كما يستطيع الضحايا الذين تقل أعمارهم عن 21 سنة أن يتقدموا بطلب استقدام والديهم أيضاً.

كما حوّل القانون وزارات حكومية محددة تطبيق آليات جديدة لمحاربة الاتجار بالبشر. وكما أشرنا في الفصل الرابع، فقد أوكل إلى وزارة الخارجية الأمريكية مهمة إنشاء مكتب لمراقبة هذا النوع من التجارة على المستوى العالمي، ورفع تقرير سنوي إلى الكونجرس، يوضح أداء الحكومات المختلفة في محاربة هذه التجارة ضمن حدودها. كما أوكل إلى وزارة الصحة والخدمات الإنسانية مهمة رفع الوعي داخل المجتمع الأمريكي حول هذه الظاهرة، وشمول الضحايا في الخدمات التي تقدمها الوزارة.

وقد أوجد هذا القانون وضعاً قانونياً جديداً يشعر فيه الناجون من الاسترقاق بالأمان عند الكشف عن هوياتهم لسلطات تنفيذ القانون، وبأنهم لن يقدموا للمحاكمة، إضافة إلى استفادتهم من الخدمات الاجتماعية المخصصة تحديداً لمساعدتهم. وبالرغم من هذا الإطار القانوني القوي، إلا أن جهود مكافحة الاتجار بالبشر منذ إقرار القانون في عام 2000، ما تزال خجولة. وقد صدرت حتى الآن تأشيرات من فئة ت أو إقامات دائمة لأقل من ألف فقط من هؤلاء الضحايا. وهذا رقم متواضع مقارنة بعشرات الآلاف من الأشخاص الذين هُربوا إلى الولايات المتحدة منذ عام 2000.

أما البيانات المتوافرة حول نجاح محاكمات تجار الرقيق، فتبدو متواضعة أيضاً مقارنة بحجم النشاط الإجرامي. ففي عام 2005، جرت محاكمة 95 متهمًا،

وجهت إلى 97% منهم اتهامات بانتهاك قانون حماية ضحايا الاتجار بالبشر، وهذا العدد يعادل ضعف عدد المتهمين الذين حوكموا في عام 2004⁽⁴⁾.

وقد توصلت السلطات الفيدرالية والمحلية في السنوات الأخيرة إلى استنتاج صحيح مفاده أنها لا تستطيع محاربة تجارة الرقيق وحدها دون تعاون من المجتمع والجهات المعنية. ونتيجة لذلك، تكاثرت في الفترة الأخيرة شراكات مجتمعية في أنحاء البلاد قاطبة من أجل ربط المنظمات الأهلية غير الحكومية المتخصصة في محاربة الاتجار بالبشر مع مقدّمي الخدمات الصحية والاجتماعية وإدارات الشرطة المحلية.

أنا رودريغيس؛ إبطال السحر

عندما وقع النائب العام جون أشكروفت قانون حماية ضحايا الاتجار بالبشر في مؤتمر صحفي في واشنطن، وقفت أنا رودريغيس وشيكا غارسيا Chica Garcia خلفه في مكان بارز. وللمفارقة أن كلتا المرأتين لم تكونا قبل سنتين على علم بوجود تجارة رقيق في العصر الحديث. أما الآن، فهما في مقدمة المطبّقين لقانون حماية ضحايا الاتجار بالبشر.

في عام 1999، التقت المرأتان بمحض الصدفة. كانت أنا تعمل في مكتب عمدة مقاطعة لولير في ولاية فلوريدا - التي تضم منطقة إيموكالي الزراعية الخصبة - محامية لضحايا الجريمة، وكثيراً ما كان يطلب إليها المساعدة في قضايا العنف المنزلي.

في صبيحة أحد الأيام، أبلغها مكتب العمدة بوقوع اعتداء في حي مزدحم بالعمال المهاجرين. كان شرطة المكتب قد ردّوا على نداء استغاثة في اليوم السابق، وعند وصولهم المكان، وجدوا امرأة غواتيمالية معتدى عليها. أخبرتهم كيف أنها عادت إلى البيت فوجدت زوجها في السرير مع الخادمة المنزلية. وقد

اعتدى عليها الزوج بوحشية عندما احتجت على فعلته. لكن الغريب هو أن مكتب العمدة لم يكترب بالأمر، ولم يكلف أحداً بالتحقيق مع الخادمة، وبدلاً من محاولة حل هذا النزاع الزوجي المعقد، أحال المكتب القضية إلى أنا لدراستها.

عندما زارت أنا البيت، قابلت الزوجين كلاً على حدة. وعندما طلبت التحدث إلى الخادمة، أصبح الزوج عصيباً جداً، ولكنه لم يستطع رفض طلبها. تزايدت شكوك أنا، فأخذت الفتاة الشابة جانباً لتتحدث إليها على انفراد. قالت الفتاة إنها تدعى شيكا، وأن عمرها 15 سنة، وأن صاحب البيت اختطفها قبل ستة أشهر من قريتها التي يرأس أخوه مجلسها، ثم نقلها على حافلة للركاب عبر الحدود الأمريكية - المكسيكية، ومن ثمَّ عبر جنوب الولايات المتحدة وصولاً إلى فلوريدا، وأنها تعيش الآن مع مختطفها وزوجته وأطفالهما.

قالت الفتاة أيضاً إنها كانت تعمل فلاحاً في الحقل نهاراً وجارية للجنس ليلاً. كان تاجر الرقيق هذا يجبرها على العمل في حقول الطماطم، ويظل لصيقاً بها ليتأكد أنها لن تتواصل مع عمال الحقل الآخرين. كما ادعى الرجل أن إحضارها إلى الولايات المتحدة كلفه ألفي دولار، ولذلك فإنه سيحتفظ برواتبها إلى حين استرداد ما دفعه. وبالنسبة إلى الزوجة فقد كانت تعمل في المساء، مما يعطيه الفرصة لاغتصابها.

أصيببت أنا بالذهول، لقد سبق لها وأن تعاملت مع قضايا كثيرة تتعلق بالإساءة الجنسية والعنف المنزلي، ولكن الحالة التي أمامها عبارة عن عبودية صريحة. وبالرغم من ذهولها، حافظت أنا بهدوئها، وواست شيكا، وقالت إنها ستوفر لها مأوى على الفور. ولشدة دهشة أنا، رفضت الفتاة مغادرة المنزل بشدة.

أبلغت أنا مكتب العمدة بجريمة الرجل، فاعتقلته، ووضعته في السجن. عادت أنا إلى المنزل عدة مرات في الأسبوع التالي، وحاولت إقناع شيكا بمغادرة المنزل والإقامة في مركز إيواء، لكن الفتاة كانت مصممة على رفض هذا العرض. وبعد

أن توثقت عرى الثقة بينهما، بدأت أنا في كشف الغموض؛ توصلت إلى معرفة أن شيكا كانت في 19 من عمرها، في حين أمرها الرجل أن تقول إن عمرها 15 عاماً حتى يظن الناس أنها ابنة أخيه. وبعد ذلك، عرفت سبب سيطرة الرجل عليها بهذه الطريقة. أخبرتها شيكا بأن الرجل أخذ خصلة من شعرها، وطلب إلى أحد السحرة أن يربطها به، وهذا مُعتقد شائع في مناطق كثيرة في أمريكا اللاتينية؛ بأنه إذا ما حاولت الهرب، فإن عائلتها سوف تتع في مصيبة، ولهذا فهي تخاف مغادرة المكان حتى لا تحل اللعنة على أسرتها.

عندما فتشت الشرطة محفظة الرجل، وجدت خصلة الشعر في المكان الذي وصفته شيكا بالضبط. في زيارتها التالية، لجأت أنا إلى الخديعة للحصول على مساعدة الفتاة. قالت لها إنها عادت للتو من زيارة السجن، وإن الرجل قد تنازل عن خصلة الشعر، وسامحها بالنقود التي تدين له بها.

عندئذ، اقتنعت شيكا أنها قد تحررت من السحر، فوافقت على مغادرة المكان. وكانت أول من حصل على تأشيرة من فئة ت في الولايات المتحدة. مرّت الأيام، تزوجت شيكا، وأنجبت ثلاثة أطفال من بينهم طفلة اسمها أنا.

لويس أيتونوي؛ تجاوز المحنة

بعد نجاحه في جمع أدلة الجريمة في الكامبيرون، وعودته إلى الولايات المتحدة، وجد لويس مصائب كثيرة في انتظاره. لقد اكتشف تجار الرقيق الشخص الذي سهل هروب الفتيات، فبدؤوا يتصلون ببيته هاتفياً ويهددونه. كما تلقى مكالمات غاضبة من مواطنين كامبيرونيين يعيشون في الولايات المتحدة اتهموه فيها بتلطيخ سمعة جاليتهم. قال له أحدهم: لِمَ لا تدع الأمور على حالها؟ أنت تعرف أن هؤلاء البنات كنّ يعانين من الفقر والبؤس في الكامبيرون، وحالهن الآن أفضل بكثير مما كنّ فيه.

وفي الوقت ذاته، ضاقت زوجته ذرعاً بالمأساة التي تعيشها العائلة منذ قدوم البنات الهاريات، ناهيك عن تكاليف الأكل، والرعاية الصحية، والاستشارات القانونية. كما تردى وضعه المالي لدرجة أن سيارته عندما تعطلت في إحدى زيارته لدائرة الهجرة والتجنيس، لم يجد نقوداً لإصلاحها. وازداد الوضع سوءاً عندما أصرت زوجته على إنهاء هذا الموضوع بأسرع وقت ممكن.

في منتصف عام 2002، بلغت مشاكله ذروتها عندما عاد إلى البيت ووجد عدة سيارات للشرطة تقف أمام المنزل. أخبرته الشرطة عن تلقيها معلومات تشير إلى أنه يأوي مهاجرات غير شرعيات وبأنه قد حوّل بيته إلى ماخور للدعارة. عرف لويس أن مصدر هذه المعلومات هم تجار الرقيق الذين بعثوا برسائل تشهّر به إلى وكالات الخدمة الاجتماعية ودوائر الشرطة.

هددته الشرطة بوضعه والبنات وراء القضبان. ولكن، لحسن الحظ أنه احتفظ بسجل دقيق وموثق لكل ما قام به نيابة عن البنات، كما احتفظ بهواتف وعناوين المحامين وضباط القانون الذين قالوا له أن باستطاعته الاتصال بهم في أي وقت إذا ما احتاج إلى مساعدة. اتصل رجال الشرطة بهواتف المصادر التي أعطاها لهم، فأكدوا للشرطة أن لويس من الناس الشرفاء.

في أعقاب افتتاح الشرطة المنزلي، نشرت الصحيفة المحلية استطلاعاً صحفياً عن أنشطة لويس وأشادت بتضحياته في تحرير الفتيات المُستعبَدات، ثم أخذ الجيران يتوافدون على بيته لتهنئته، واعترفوا له أن هناك من طلب منهم مراقبة تحركاته. وقال أحدهم: لقد عرفنا الآن سبب مجيء محققين كثر إلى بيوتنا وسؤالهم عنك.

بعد غارة الشرطة، تلك، على بيته، أخذت الأمور مسارها الصحيح؛ حيث اعتقل تجار الرقيق، وقدموا للمحاكمة. وعندما شاهدت هيئة المحلفين الشريط المصور الذي التقطه لويس لأولياء أمور البنات. واستمعت إلى شهادتهن، أدانت

المجرمين بجريمة الاختطاف والاعتداء الجنسي. وحصلت الفتيات على الإقامة في الولايات المتحدة، وتزوجن، والتحقت كل منهن بعمل، وما يزلن على اتصال منتظم مع عائلاتهن في الكاميرون. أما لويس، فلم يتوقف عند هذا الحد، بل نجح في إنقاذ ثلاث فتيات أخريات كن أسيرات الاسترقاق المنزلي، ولا يزال يعمل على حل قضايا أخرى. إنه يقول: لا أريد جائزة أكبر مما حققته، فحياتي أصبحت ذي معنى بعد إنقاذ هؤلاء الفتيات.

العبودية في ظلال البيت الأبيض

بدأت خبرة مشروع بولاريس بعشرات الحالات في محيط العاصمة الأمريكية واشنطن. اكتشف ديريك وكاترين أن العبودية ظاهرة خطيرة، وهي ليست مقصورة على الصين، وتايلاند، ونيبال، وأوكرانيا والدول الفقيرة الأخرى فقط، وإنما هناك شبكات قوية للاتجار بالبشر تعمل داخل الولايات المتحدة وتمتد إلى مراكز التدليك القريبة من البيت الأبيض.

تمثل المواطنات الأجنبية اللواتي يساعدهم مشروع بولاريس ما يقارب نصف عبيد الجنس في منطقة العاصمة واشنطن، في حين تمثل المواطنات الأمريكيات النصف الآخر. وتدين الضحايا جميعهن إلى حد ما بالفضل إلى تينا فروندت التي هبّت لنجدتهن في أحلك أوقات حياتهن.

سبق لتينا وأن عملت لسنوات في إنقاذ ضحايا عبودية الجنس من شوارع مدينة واشنطن، بصفتها منسقة لبرنامج التوعية التثقيفية، وكذلك بسبب موقعها الحالي مديرة لمركز كورتي، وهو منظمة تعنى بتقديم الرعاية إلى اللواتي تحررن من العبودية. وما يقلق تينا هو أن الأمريكيين ما يزالون يعتقدون أن الاتجار بالبشر يحدث فقط للنساء والأطفال خارج الولايات المتحدة. وعن ذلك تقول: «المشكلة عندنا هي أننا عندما نعرف حالة امرأة أجنبية من ضحايا الاتجار بالبشر فإننا

نتعاطف مع معاناتها، ولكننا عندما نقابل فتاة أمريكية في الشارع، فإننا نتعجب ونسأل: لِمَ اتخذت هذا الطريق؟ إنها قادرة على الانسحاب في أي وقت تريد. إننا نقول ذلك لأننا نجهل حقيقة الوضع». توضح تينا أن أعمار معظم ضحايا الاتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة تتراوح بين 12 - 14 عاماً، وهنّ لا يبعن أجسادهن طواعية. وهي تسأل الذين يعتقدون أن فتيات الشوارع الأمريكيات يفعلن ذلك بمحض إرادتهن: «كم عدد البنات اللواتي تعرفهن في ذلك العمر، ويخترن الاعتداء عليهن جنسياً عشرات المرّات في الليلة الواحدة؟»

يمكن لأي واقعة اتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة أن تأخذ عدة صور، كأن يختطف تجار الرقيق الأطفال وينقلونهم إلى منطقة داخل البلاد، أو شراء الطفل من والدين مدمنين على المخدرات. وربما يصاحب القوَّادون الفتيات الصغيرات متظاهرين أنهم يبحثون عن صداقة، ثم يجبرونهن بعد ذلك على ممارسة البغاء التجاري. كما أنهم يرتادون نوادي العراة وسجون الأحداث بحثاً عن ضحايا جدد.

تسرد تينا قصة حادثة وقعت في مطلع عام 2006. اتصلت فتاتان - عمر إحداهما 18 سنة والأخرى 19 سنة - برقم الطوارئ من حمّام أحد فنادق واشنطن. وقد فتحتا رشاش الحمّام كي لا يسمعهما القوَّاد ومحظيته اللذان يشاطرانهما الغرفة وهما يجريان المكالمة.

غالباً ما يختار القوَّادون إحدى النساء محظية لهم، ويستخدمونها طُعماً لاصطياد الضحايا، وهي محط ثقته بعد معاشرتها مدة طويلة. كما أنها غالباً ما تقوم بالأعمال القذرة التي لا يستطيع القيام بها وحده. طلبت تينا من الفتاتين المذعورتين البقاء في الحمّام، واتصلت بدورها بالشرطة، وسبقتهن لتكون بانتظارهم عند الفندق. اتصلت تينا برقم الهاتف المحمول، وطلبت إلى البنيتين أن يسألا القوَّاد إن كانتا تستطيعان شراء ماء غازي من تلاجة البيع الآلي الموجودة

خارج غرفة الفندق. بعد خروج البنيتين، اقتحمت الشرطة الغرفة واعتقلت القوَّاد ومحظيته.

وبعد إطلاق سراح الفتاتين، عرفت تينا مزيداً من التفاصيل عن قصتهما؛ تعيش الفتاتان في مدينة مدويست، وكانتا تعرفان تلك المحظية منذ مدة طويلة. آنذاك، طلبت إليهما إساءة معروف لها. وهو اصطحابها مع صديقها بعد عطل سيارته، حيث كانت تلك المحظية مضطرة للذهاب إلى واشنطن معه بسبب حصولهما على عمل جديد هناك. وعرضت أن تدفع للفتاتين بدل نقلهما في سيارتهما.

اعتبرت الفتاتان هذا العرض صفقة مربحة وفرصة لزيارة واشنطن، ولكن الرجل أبلغهما حال وصولهما إلى العاصمة أنهما ملك له. ثم دعا عدة أصدقاء له إلى الفندق في الليلة الأولى من وصولهما، فتناوبوا على اغتصابهما، ثم قال لهما: «عليكما الاعتياد على ذلك، فهذا ما ستفعلانه من الآن فصاعداً».

ولحسن الحظ أنه لم يفتش الفتاتين ليعرف إن كانتا تحملان هاتفاً محمولاً أم لا. وفي الليلة التي سبقت الاتصال، كانتا مع المختطفين في جولة لمعرفة الحياة في شوارع المدينة. في تلك الجولة، صادف أحد الأشخاص يوزع على المارة نشرة لمركز بولاريس. فأخذتا النشرة، وانتظرتا اللحظة المناسبة للاتصال بالخط الساخن، وهكذا تلقت تينا مكالمتهما.

تعرف تينا تماماً الصدمة التي يمر بها من يتعرض لاختطاف تجار الرقيق، فهي نفسها أُجبرت على ممارسة الرذيلة عندما كانت في 14 من العمر. حينها، كانت تعيش في شيكاغو، عندما تقرب إليها شاب يكبرها بعشر سنوات، وادعى أنه مولع بحبها - وهذه طريقة اصطياد معروفة تُدعى «الولد العاشق». بعد مرور عدة أشهر على تعارفهما، اقترح عليها الهرب بعيداً عن والديها. وافقت تينا على اقتراحه، وانتهى بهما المطاف في مدينة كليفلاند، حيث قال لها إنهما

سيذهبان لزيارة بعض أقاربه. في تلك الليلة، جاء إلى الفندق الذي نزل به عدد من أصدقائه. فطلب إليها صديقها ممارسة الجنس معهم. وعندما رفضت، قاموا باغتصابها الواحد تلو الآخر. وبعد مغادرتهم، قال لها صديقها ببساطة: لم يكن ذلك ليحدث لو أنك استمعت إليّ منذ البداية.

واليوم، تقول تينا للفتيات أو النساء اللواتي تنقذهن: لستن مرغبات على الإفصاح عن كل ما حدث لكنّ، فقد مررت بهذه التجربة شخصياً. عندما تقول ذلك، تنفجر الضحية بالبكاء، وينهار الحاجز لمجرد أن شخصاً آخر يشعر بالألم الذي مررت به.

تقول تينا: ما حدث لي قبل 20 عاماً، ما يزال مستمراً إلى يومنا هذا. إنّها تدرك أن تجار الرقيق سوف لن يتخلوا عن تجارتهم بسهولة؛ إنها تجارة تدرّ عليهم أموالاً طائلة. وهي تورد مثالا على ذلك؛ تاجر رقيق في واشنطن كان يحتجز ثلاث شابات في إصطبل، كل واحدة منهن كانت تدرّ عليه 1500 دولار في اليوم، أي 45 ألف دولار في الشهر، أي 540 ألف دولار سنوياً من خلال بيع هؤلاء الفتيات كل ليلة.

جاء في شهادة لها أمام لجنة لمجلس الشيوخ كانت تحاول معرفة عصابات الجريمة التي تقف وراء تجارة الرقيق الأبيض: إن القوادين مدللون الآن. إنهم لا يخافون الشرطة ولا النظام القضائي، لأنهم يشعرون أنهم محصنون. وفي الحقيقة أننا نحن الذين جعلناهم كذلك من خلال عدم اعترافنا بوجود المشكلة والعمل على حلها.

الجوقة الزامبية؛ ترانيم وابتسامات

عندما اختاره القس غرايمز للانضمام إلى الجوقة في عام 1998، كان غيفين كاشيبا يتيمًا، عمره أحد عشر عاماً. توفيت والدته وهو في الصف الثاني،

في حين قضى أبوه بعد عامين. انتقل غيفين وأشقائه الخمسة للعيش مع عمتهم مارغريت التي كانت تعيل ستاً من الأطفال.

ولذلك، بدت الوعود التي قطعها القس غرايمز له ولعمته حلما على وشك التّحقّق، فما الذي يتوقعه أكثر من جمع بعض النقود لعائلته الفقيرة، والحصول على مستوى تعليم رفيع في الولايات المتحدة. كما وعد القس بتعميد الأولاد حال وصولهم إلى الولايات المتحدة، وهذا وعد يعني الكثير بالنسبة لمن يتحولون إلى المسيحية في زامبيا. ويشرح غيفين ذلك بالقول: «عندما تكون من بلد فقير، ثم يأتيك شخص من بلد غني ويقول إنه سوف يوفر لك كل ما ينقصك في حياتك، فإنك سوف تعتقد أن هذه هبة من الله لا تُردّ».

يبدو من شبه المستحيل أن يحصل مواطن زامبي فقير على تأشيرة لزيارة الولايات المتحدة، لكن أحد كبار الضباط في شرطة زمبابوي تعاون مع غرايمز لتسهيل عملية إصدار التأشيرات لمئات من أطفال الجوقة. كما يبدو أن هناك مسؤولين حكوميين آخرين كانوا يتلقون أموالا من برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم» لأن القس الأمريكي استطاع تزوير تواريخ الميلاد على جوازات سفر الأطفال. وعندما علم أن المشاهدين الأمريكيين على استعداد للتبرّع أكثر لمساعدة الأطفال الصغار، قام بإعداد ملصق بصور أطفال صغار في السن.

لم يفِ القس بأي وعد من الوعود التي قطعها للأطفال الزامبيين. كان العاملون في مقر البرنامج في تكساس يوقظون الأطفال فجر كل يوم، ويجبرون على الحفر لبناء بركة سباحة. وبعد ساعات من العمل الشاق تحت الشمس الحارقة، كانوا يتمرنون على أداء الترانيم بعد الظهر وفي المساء.

وبالرغم من الإجهاد الذي كانوا يشعرون به في نهاية كل يوم، إلا أن ذلك لا يُقارن بالتعب الذي كانوا يحسّون به وهم يتنقلون لتقديم عروضهم في أيام تمتد إلى 18 ساعة، وسبعة أيام في الأسبوع على مدار شهر في الرحلة الواحدة.

كان الأطفال يسافرون من مكان إلى آخر وهم محشورون داخل عربة صغيرة. وفي إحدى المرات، وصلوا إلى أحد الأمكنة، وأعدوا المسرح للعرض، وبعد انتهاء الحفلة الموسيقية، قاموا بتفكيكه أيضاً. لقد كانوا يقومون بهذه العملية عدة مرات في اليوم الواحد. ويصف غيفين إحساسهم بالقول: كنت أشعر أنني دمية بأيديهم، بمسكونها بخيط ويجر كونها كيفما شاؤوا. كان يطلب إلي الابتسام والغناء بتعابير الفرح الإلهي، إلا أن الترانيم فقدت معناها في نفسي.

بعد مضي ثلاثة أشهر على وصوله إلى الولايات المتحدة، سأل غيفين القس غرايمز وابنته باربرا عن موعد بدء الدراسة التي وعد القس أنه سوف يوفرها لهما. كانت ردة فعل القس وابنته غير متوقعة، إذ انتابهما غضب شديد، وأخذا يصرخان ويشتمان. وقالوا له إنه ناكِر للجميل، ويتعين عليه شكرهما لأنه مُنحَ فرصة العيش في أمريكا. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي يسأل فيها عن الدراسة. كما تبين أن تعميد الأولاد في الكنيسة كان وعداً كاذباً أيضاً.

بعد وفاة القس غرايمز في عام 1999، أخذت الأحداث مساراً مختلفاً؛ تولت ابنته باربرا وزوجها غاري مارتنز المهمة من بعده، هي لإدارة الشؤون المالية، في حين يشرف زوجها على برامج الجولات الموسيقية. لكن ذلك لم يغيّر من بؤس الأولاد شيئاً، إذ استمرت معاناتهم مثلما كانت عليه في أيام القس غرايمز.

كانت باربرا وغاري مارتنز لا يتمتعان بالكياسة والذكاء اللذين كان يتمتع بهما القس غرايمز. فقد قررا في أحد الأيام ترحيل اثنين من الأولاد إلى زامبيا لأنهما يؤثران سلباً في عمل الجوقة، فاتصلا بإدارة الهجرة والتجنيس لترحيلهما. عندما أخذهما أحد ضباط الإدارة إلى المطار، كشفوا له وهم في الطريق تفاصيل ما كان يجري في الخفاء. وقد لمس الضابط مصداقية في رواية الطفلين، فأخذهما إلى مكان آمن بدلا من المطار.

فتح الضابط تحقيقاً في نشاط برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم»، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة فورية، والسبب في ذلك أن باربرا وزوجها كتبا للأولاد ما سيقولونه رداً على أسئلة المحققين. كما حذرا الأولاد من أن المحققين سوف يسجنوهم ويعذبوهم إذا ما شعروا أن هناك ما يريب. ويقول غيفين عن ذلك: لقد جعلنا نعتقد أن هؤلاء الضباط لن يساعدونا. في بلادنا، يأخذ المسؤولون الحكوميون الرشوة كل يوم. نحن لا نثق بمن يرتدي الزي الرسمي.

ونتيجة لهذا التخوف، رفض الأولاد جميعهم الإدلاء بشهاداتهم. ولذلك، لم يتوصل التحقيق إلى نتيجة إلا بعد سبعة أشهر، عندما استطاع ضباط إدارة الهجرة تخليص الأولاد من قبضة المشرفين على برنامج «تعليم المعلمين كيفية التعليم».

عندما علمت ساندي شيبيرد بالأمر، سارعت في الاتصال بالشرطة الذين أكدوا لها الخبر، لكنهم قالوا إنهم سوف يحتجزون الأولاد في إحدى زنازين الإدارة إذا لم يتوافر لهم مأوى آمن. وجدت ساندي عدداً كبيراً من العائلات الذين استعدوا لإيواء هؤلاء الأولاد المنقطعين عن عائلاتهم.

بعد رحلة طويلة مع الفحوص الطبية، واستصدار إذن عمل، وطلبات الحصول على التأشيرة، حصلت ساندي وزوجها في عام 2001 على حق الوصاية القانونية على غيفين؛ سجّلاه في الصف السابع، أداؤه كان رائعا في المرحلة الثانوية، تخرج في جامعة تكساس. كان يعمل بدوام جزئي، ويرسل معظم ما يكسبه من نقود إلى أشقائه في زامبيا.

عمل غيفين بعد تخرجه على تحقيق وعد لم يف به القس غرايمز، إذ نظّم حملة جمع تبرعات لبناء مدارس في زيمبابوي، كما طاف الولايات المتحدة ليتحدث عن تجربته، وعن شعور ضحايا الاتجار بالبشر. وكان يقول لمستمعيه: انظروا تحت السطح؛ فضحايا الاتجار بالبشر غالباً ما يكونون في الخفاء. لذا، ابحثوا عن إشارات تبدو لكم مريبة.

اتساع الرؤية

أصبحت كاي باك المدير التنفيذي لتحالف إلغاء العبودية والاتجار بالبشر في عام 2003، وهي تتمتع بخبرة عالمية في مجال مناهضة الرق. عاشت كاي، المولودة في كندا، في آسيا من عام 1990 – 1996، واشتركت مع مناهضي الرق في تايلاند واليابان لإعداد استراتيجيات تكفل الحد من حالات الاتجار بالبشر في المجتمعات الريفية. وبالرغم من أن الحلول الاقتصادية والاجتماعية الإبداعية قد ساعدت على بناء مجتمعات قوية، إلا أن كاتي لم تتجاهل حقيقة وجود نمط من الثقافة الهدّامة يتمثل في تسامح المجتمع مع العنف ضد النساء.

لم تكن كاتي الوحيدة التي تتمسك بهذه القناعة، بل إن أي تحليل موضوعي لتجارة الرق العالمية يدعم هذا الاستنتاج؛ فلو أخذنا خمسا من ضحايا تجارة الرقيق كعينة، سنجد أن أربعا منهن من النساء. ولا تختلف النتيجة كثيراً، حتى وإن فصلنا عبودية الجنس عن أعمال السخرة. ومع أن الإناث هن الفئة المُستهدفة في تجارة الرقيق، فهنّ يشكّلن الأغلبية بين قوة العمالة القسرية في المصانع، ومصانع النسيج والسجاد، والخدمة المنزلية، وغيرها أيضاً. كما تظهر البحوث أن الأثني، بغض النظر عن نوع عبوديتها، تتعرض في معظم الحالات إلى العنف الجنسي.

عندما غادرت آسيا، انضمت كاتي إلى منظمة كندية غير حكومية، تعنى بالعنف الاجتماعي ضد النساء. ومع أن الألفاظ قد تغيرت - من الاتجار بالبشر إلى العنف على أساس النوع الاجتماعي - فإنها ما تزال تتعامل مع القضايا نفسها التي واجهتها في آسيا. وعندما لاحت لها هذه الفرصة لرئاسة تحالف إلغاء العبودية، عادت مرة أخرى لاجتياز متهات الاتجار بالبشر. كانت مؤسسة النساء في ولاية كاليفورنيا أول مؤسسة خاصة تدعم عمل الائتلاف، لاقتناعها

بأن موجة مكافحة شبكات الاتجار بالبشر في العالم سوف تبلغ أوجها عندما تتحد النساء على المستوى العالمي لتمكين النساء الأخريات.

من غير الإنصاف تصنيف هذا التحالف على أنه منظمة نسائية؛ لأنه يعمل من أجل مساعدة الناجين من الرق ومعاقبة تجار الرقيق عموماً. كما تميز التحالف عن غيره من المنظمات في مجال تدريب الشرطة على كيفية تحديد الضحايا المحتملين، وإنقاذهم، وتوفير الرعاية لهم لاحقاً. وقد نُظمت برامج تدريب للشرطة في عدة ولايات أمريكية.

في عام 2005، وفي إحدى ورشات التدريب، كان الخلاف حول دوريات الحدود قد بلغ أشده بعد ظهور منظمة خاصة أخذت على عاتقها مهمة منع المهاجرين من دخول الولايات المتحدة، مما جعل شرطة أريزونا تعلن أنها غير مسؤولة عن تطبيق قوانين الهجرة. وقالت إن التهريب مسألة فيدرالية وليست من اختصاص الولايات. لكن القائمين على الورشة أوضحوا للمشاركين فيها الفرق بين التهريب من جهة (وهي جريمة يقوم فيها أفراد بمساعدة المهاجرين على عبور الحدود دون وثائق أو موافقة رسمية) والاتجار بالبشر (وهي جريمة يُجبر فيها أفراد أو يُخدعون لدخول الولايات المتحدة، ثم يضطرون إلى العمل رغم أنوفهم) من جهة أخرى.

وأكد قائد دائرة شرطة مدينة لوس أنجلوس الذي يتعامل مع قضايا الاتجار بالبشر على أهمية التدريب لإرساء الشراكة بين الشرطة والمجتمع. وقال: غالباً ما تكون هذه التجارة طيّ الخفاء؛ لذا، علينا التركيز على الدلالات والإشارات التي قد تقود إليها. في الماضي، كنا نركز على الجريمة التي نحقق فيها. ففي قضية تتعلق بالعنف المنزلي، مثلاً، لم نكن نسأل الضحية عن موطنها، أو كيف يمكن أن تكون قد وقعت تحت سيطرة صاحب المنزل».

كما شدّد أيضاً على أهمية التعاون بين الشرطة والمنظمات غير الحكومية من أجل كسب ثقة الضحايا والشهود المحتملين في قضايا التجارة بالبشر؛ حيث تستطيع المنظمات غير الحكومية مساعدة الشرطة بإقناع المواطنين الأجانب الذين يخافون التحدث إليها، بأنها تقف إلى جانبهم وسوف تسعى إلى معاقبة كل تاجر رقيق. وفي الوقت ذاته، تستطيع المنظمة غير الحكومية مساعدة الشرطة على فهم القضايا الثقافية غير المعلنة التي يضيفها الضحايا أو الشهود إلى القضية.

آنا رودريغيز

ولدت أنا في مدينة سان خوان في بورتوريكو. وعندما جاءت إلى فلوريدا بعد انتقال والدها إلى العمل في فرع الشركة في «ولاية الحمضيات»، كان عمرها 18 عاماً. ثم تزوجت مبكراً وأنشأت عائلة. وبعد أن كبر أطفالها، أخذت تفكر في الكيفية التي تمكنها من مساعدة مجتمعها المحلي. وسنحت لها الفرصة عندما دعاها مدير برنامج العنف المنزلي للعمل التطوعي في ملجأ البرنامج لأيام قليلة كل شهر.

أحبت أنا العمل في الملجأ، واكتشفت أن لديها القدرة على التعامل مع الأزمات بأعصاب باردة. ولذلك، سرعان ما أخذ الناس يأتون إليها لمساعدتهم على حل مشكلاتهم. ولأنها تتمتع بشخصية دمثة، فإنها لا تجعل الضحايا يترثون لحالهم، بل تجعلهم يشعرون أنها إلى جانبهم وليست ضدهم.

وفي أثناء عملها في الملجأ، تعاونت أنا مع جهاز القضاء لتقديم قضايا العنف المنزلي إلى المحكمة. في الماضي، لم يكن المحققون أو المدعون العامون يستطيعون إقناع النساء المعنّفات للحديث عما فعله بهن أزواجهن أو أصدقائهن. يضاف إلى ذلك أن معظم العمال المهاجرين في ولايتها لا يتقنون برجال الشرطة.

وهم يخافون من قيام الشرطة بإبعادهم إذا ما أبلغوا عن جريمة ما. ولذلك، أصبحت المحاكم، الآن، تنظر في قضايا لم يكن من الممكن النظر فيها سابقاً بسبب تحفظات الضحايا.

في عام 1995، انضمت أنا إلى مكتب عمدة المقاطعة للعمل مسؤولة ارتباط مع المجتمع المحلي. وقد تطلبت هذه الوظيفة منها بذل جهد كبير؛ لأن عمال المزارع يبدوون يومهم في الساعة الرابعة صباحاً وينتهون من العمل عند الغسق مساءً. وعندما توصلت عرى الثقة بينها وبين مجتمع المهاجرين، أصبح مكتب العمدة يزدهم بالمشتكين كأنه عيادة طوارئ في مستشفى عام.

بعد قضيتي الأولى مع الفتاة الفواتيمالية شيكا غارسيا، لمست أنا تزايداً في أعداد حالات الاتجار بالبشر، ولكن ندرة الخدمات المقدمة للضحايا كانت تسبب لها إحباطاً. في مرة واحدة، أنقذ مكتب العمدة سبعة أطفال هربوا إلى الولايات المتحدة لغايات الجنس، ولم تعثر أنا على أي مكان يأويهم لأن الجهاز القضائي لا يدير سوى سجون الأحداث التي يوضع فيها الأطفال الهاربون من عائلاتهم والخارجون على القانون من الأقليات. أما ضحايا الجريمة فلا يمكن إيواؤهم في السجن.

كما أعربت أنا عن سخطها لأن كثيراً من قضايا الاتجار بالبشر أخذت تتعثر، ولا تصل إلى المحكمة إطلاقاً. إنَّ النظر في قضية الاتجار بالبشر يتطلب تفانياً وإخلاصاً؛ لأنها مكلفة وتستغرق وقتاً طويلاً، فكثيراً ما تكون هناك حاجة إلى إرسال محقق إلى دولة أجنبية للكشف على الموقع الأصلي للاختطاف. يضاف إلى ذلك تردد الضحايا في التعاون لأنهم رُوعوا نفسياً، أو هددوا بالقتل إذا ما تقدّموا للشهادة. وربما يلجأ تجار الرقيق إلى تصوير الضحية في مشاهد جنسية معيبة، ومن ثمَّ التهديد بإرسال المشاهد المصورة إلى عائلتها وجيرانها في بلدها الأم.

بعد أن لمست بنفسها الأسباب كلها التي قد تؤدي إلى الإحباط، استقالت أنا من مكتب العمدة، وأنشأت تحالف فلوريدا لمناهضة الاتجار بالبشر. وبصفتها مديرة تنفيذية لهذا التحالف، فقد تمثل هدفها الرئيس في إيجاد وكالة تربط بين أجهزة تنفيذ القانون، ومؤسسات الخدمة الاجتماعية، وضحايا الاتجار بالبشر. استطاعت أنا الحصول على التمويل من عدة جهات حكومية - على رأسها وزارة الصحة والخدمات الإنسانية - ومتبرعين قليلي العدد. وإضافة إلى هذا المنصب، تعمل أنا مدربة في الاتجار بالبشر لمنظمة الدول الأمريكية. وهي تؤمن أن وقف عمليات الاتجار بالبشر يتطلب جهداً مجتمعياً واسعاً. وعليه، أقامت علاقة وثيقة مع سلطات تنفيذ القانون المحلية لضمان حصول رجال الشرطة على التدريب الكافي للتعامل مع قضايا هذه التجارة. ولهذه الغاية، فإنها تعقد ورشات عمل لأي مجموعة يمكن أن يكون لها احتكاك مع الناس في بيوتهم أو أماكن عملهم. ومثالا على ذلك، فإنها تدرب عمال شركات الخدمات الذين يقرؤون عدادات المياه والكهرباء في الأحياء السكنية، وكذلك موظفي الرعاية الاجتماعية والصحية الذين يزورون البيوت. والغاية من هذا التدريب هي: كلما زاد عدد الأشخاص الذين يعرفون المؤشرات التي عليهم البحث عنها، زاد عدد الضحايا الذين يمكن إنقاذهم.

في عام 2009، نجحت وحدة في إنقاذ 250 ضحية في ولاية فلوريدا. وهي تحدد في ندواتها البؤر التي يمكن أن يوجد فيها هؤلاء الضحايا، وهي: خدمات تنظيف المنازل، خدمات البستنة والحدايق، البيوت التي تستقدم الخدم، المشاريع الزراعية الكبيرة، مواقع البناء والإنشاءات، الملاهي، مصانع الملابس والنسيج، خدمات الفنادق، محال التجميل، تجمعات المهاجرين، أسواق الدعارة، صالونات التدليك، حالات العنف الأسري. وبعد تحديد هذه الأماكن، تطرح على المشاركين مجموعة من الأسئلة ليستطيعوا من خلال الإجابة عنها تعرّف حالات الرق. ومن هذه الأسئلة:

- هل تتمتع الضحية المحتملة بحرية الحركة؟
- هل يُسمح للضحية المحتملة بالاحتكاك بالمجتمع، أو حضور المناسبات الاجتماعية والدينية دون مرافق؟
- هل الضحية صغيرة السن؟ وهل تبدو تحت سيطرة أحد البالغين غير أبويها؟
- هل يوجد للسكن أبواب خارجية ذات أقفال؟ أو: هل هو محاط بأسلاك شائكة متجهة إلى الداخل لمنع الناس في داخل السكن من الخروج؟
- هل هناك ألواح مثبتة على النوافذ؟
- هل هناك حركة دخول وخروج منتظمة لرجال؟
- هل تبدو النساء اللواتي يدخلن ويخرجن من السكن تحت مراقبة دائمة من الحراس؟
- هل تعرضت الضحية المحتملة إلى تهديد بالترحيل؟
- هل تعرضت الضحية المحتملة أو أحد أقاربها، إلى التهديد بالأذى إذا ما حاولت الهرب؟
- هل تملك الضحية المحتملة وثائق ثبوتية (جواز سفر) مثلاً؟ وإذا لم تمتلك هذه الوثائق، فمن الذي يحتفظ بها؟
- هل لقنت^{١١} الضحية المحتملة ما ستقوله في حال التحقيق معها من قبل سلطات تنفيذ القانون؟
- هل أُجبرت الضحية المحتملة على القيام بعمل ما؟

- هل أرغمت الضحية المحتملة على القيام بممارسات جنسية؟
- هل حُرمت الضحية المحتملة من: الطعام، أو الماء، أو النوم، أو الرعاية الصحية، أو إحدى ضروريات الحياة؟

ومرة تلو أخرى، تثبت خبرة أنا أن الحال سوف يتغير عندما يتعلم الناس قراءة إشارات التحذير بوجود عبودية، ويشعرون بالثقة في اتخاذ إجراء صارم بحق المتورطين فيها. فمثلاً، بعد دورة تدريبية في إبريل عام 2005، تقدّمت إحدى العاملات في مجال الرعاية الاجتماعية من أنا، وقالت لها إنها تعرف فتاة في أحد المنتجعات السياحية تنطبق عليها مواصفات ضحايا الاتجار بالبشر.

بعد أيام قليلة، رافقت أنا قوة من الشرطة التي داهمت المنتجع، وأنقذت فتاة غواتيمالية تبلغ من العمر 14 سنة، وقد كانت مُستعبدة منذ ثلاث سنوات، على يد تاجر الرقيق الذي يملك المنتجع. كان صاحب المنتجع يجبرها على إعداد وجبات الطعام للعمال، وكان يحبسها داخل المنزل عند خروج العمال لعملهم. كما كان يفتصبها، ويسمح للعمال وللموردين الذين يطالبونه بديونهم بممارسة الرذيلة معها.

ذكرت الطفلة في إفادتها أنها كانت حاملاً في شهرها السادس، العام الماضي. إلا أن تاجر الرقيق ضربها بقسوة، فهبّ أحد الجيران لمساعدتها، ونقلها إلى المستشفى حيث أجهضت هناك. أبلغ الجار الشرطة بالحادث، لكنها لم تتخذ أي إجراء، واعتبرت القضية نزاعاً عائلياً.

كانت أنا تسرد هذه القصة لتبيّن الأثر الذي يمكن أن يحدثه تكاتف أفراد المجتمع. وبما أنها لم تقبل أن يظل المجرم دون عقاب، فقد ظلت تصرّ على الشرطة إلى أن تدخلت، واعتقلت الفاعل الذي اعترف بجريمة الاتجار بالأطفال لغايات الجنس. ولم يكن هو الوحيد الذي حُكم عليه بالسجن، بل حُوكمت أيضاً

شقيقته لتسترها على الجريمة، وكذلك على أحد شركائه الذي مارس الجنس مع قاصر مقابل دين مستحق على صاحب المنتجع.

وتؤكد أنا أن أشياء كثيرة قد تغيرت في العقد الماضي، ويعود الفضل في ذلك إلى إنشاء جبهة المجتمع الموحدة التي يمكنها هزيمة شبكات الاتجار بالبشر. لكنها في الوقت ذاته لا تستهين بأي عمل مهما كان متواضعاً، ومن ذلك توعية المجتمع؛ لأن الاتجار بالبشر يمكن أن ينجح فقط إذا ما بقيت الضحايا بعيدة عن أنظار الناس. لذا، علينا أن نكشف حجاب الجهالة.